ملف (الايكونومست) ... الإسلام السياسي و الغرب

# الإسلام والغرب.. الرحلة العسيرة
# ديموغرافيا معقدة و ثيوقراطيات طافحة و بطريركية أزلية

ترجمة : أمير دوشي
باسم الإسلام

(٢-١)

**يذهب بيتر ديفيد إلى أن أحداث سبتمبر وضعت الإسلام موضع الخصم مع الغرب.**
**غير أن الحرب الرئيسة تجري الآن في داخل العالم الإسلامي. (يقولون : الحرب قادمة)، كان ذلك العنوان الرئيس لآخر استطلاع أجرته الايكونومست عن الاسلام في آب ١٩٩٤، وقد استنتجنا حينها أن الصراع بين الإسلام و الغرب غير ممكن بأي حال من الأحوال.**

لكن كاتب الاستطلاع لم يكن مقتنعاً بأن ذلك أمر حتمي، إذ كان هناك احتمال آخر، و هو أن يتحول الغضب وخيبة الأمل - اللذان يبدوان أنهما يعمان العالم الإسلامي في التسعينيات - إلى اتجاه أكثر اعتدالاً. أفليست خيبة الأمل هذه مشابهة لتلك التي بدأت تعم المسيحية في القرن السادس عشر، والتي قادت - عبر حركة الإصلاح - إلى تطورات العالم الحديث؟

إن سقوط برجي التجارة قبل سنتين يقدم للبعض شاهد إثبات دراماتيكيا عن أن استشراف التسعينيات اليائس كان صواباً. فما ذلك الهجوم، إذن، إن لم يكن بداية حرب جديدة بين الحضارات؟

العديد من المسلمين لا يودون إلحاق صفة (الإرهاب الإسلامي) بجرائم القتل الجماعي التي اقترفها أسامة بن لادن وجماعة (القاعدة)، فالإسلام - على نحو ما يقولون - هو دين السلام، و هم يرون أنه اذا كانت هنالك صلة للمسيحية بإرهاب السبعينيات (جماعة بادرماينهوفن (في ألمانيا) أو الألوية الحمراء (في إيطاليا)، فانه يمكن أن نجد صلة للإسلام بـ (بن لادن)، ويقولون : سمهِ (الإرهاب)، واجعل الإسلام بعيداً عنه.

و لكن ذلك أمر غير ممكن على الإطلاق، فعندما يحاول أناس قتلك - و لا سيما اذا كانوا متمكنين من ذلك - فمن الحصافة الإصغاء للأسباب التي يقدمونها. هذا فضلا عن أن بن لادن شن حربه ظاهرياً باسم (الإسلام)، و كان قد شغل نفسه - قبل ثلاث سنوات من حادثة البرجين - بإصدار بيان طويل لتشكيل جبهة إسلامية للجهاد ضد اليهود والصليبيين، و قد صرح، آنذاك، بأن قتل الأمريكان وحلفائهم، مدنيين أو عسكريين، هو فرض على كل مسلم قادر على ذلك حتى يتحرر المسجد الأقصى في القدس والحرمان الشريفان في مكة والمدينة من الأسر وتنسحب جيوش الكفر مهزومة من كل ديار العرب. سيكون من الموضوعي القول إن أية مجموعة من مختلي العقول تعتزم القيام بجريمة ما فانها تبدو حرة فيما تقول عن بواعث عملها ذاك. فإذا كانت القاعدة تقتل باسم (الإسلام) فان هذا لا يعني أن الصراع مع الغرب ركن أساسي من الأيمان (في الاسلام). فاذا كان الإرهابي الماركسي يقول انه يقتل من اجل الطبقة العاملة وان لديه الإطار النظري الشامل الذي يبرر فعله ذاك، والى هذه النظرية ينتمي أناس كثر، فان هذا لا يعني أن في جوهر الطبقة العاملة ما يشعل الحرب على الرأسمالية، و لكن على المجتمعات التي تحاول التعامل مع الإرهاب الماركسي النظرَ في أفكار ماركس لِتتبينَ المدى الذي يؤمن به الإرهابيون.

غير أن أولئك الذين يودون الاعتقاد بأن الإسلام بريء من الإرهابيين الإسلاميين يملكون مشكلة حقيقية، و هي أن الإرهابيين لا يقولون خلاف ذلك، بل يوجد - كذلك - أنصار متحمسون و إطار نظري يُوظَّف لتبرير هذه الأفعال. إن الكثير من هذه النظرية حديث سياسياً ودينياً ويعود لطروحات في نهاية القرن العشرين، على نحو لا يمكن انكاره، و هي توصف مصطلحات عدة : (الأصولية)، (الإسلاموية)، (الإسلام السياسي)، على الرغم من أن الكثير من هذه المصطلحات بحاجة إلى فحص، و لكن البعض منها له - أو يدعي أن له - صلة بالأفكار الأصولية وممارسات الدين نفسه.

## الله أو الجهل

أفضل بداية لفهم هذه العقيدة هي أفكار سيد قطب، الناقد الأدبي في الثلاثينيات والأربعينيات والناشط في حركة الأخوان المسلمين في مصر قبل إعدامه عام ١٩٦٦. ففي أواخر الأربعينيات، أمضى سيد قطب عامين في أمريكا، و هي تجربة مقتها، غير أنها - على ما يبدو - غيرت موقفه مما يسميه الناس في الغرب (الحداثة) التي يراها قطب أمرا سيئا. فعند عودته إلى مصر، كتب قطب سلسلة كتب - أنجز اغلبها وهو في السجن - يشجب فيها الجاهلية، التي رأى فيها أنها تمثل سيطرة الإنسان على الإنسان أو الخضوع للإنسان لا لله. و يرى قطب أن مثل هذا السلوك وُجد في الماضي و هو موجود في الحاضر ويهدد بالاستمرار في المستقبل، و هو العدو الدائم للإسلام، ففي كل زمان ومكان يواجه الكائن البشري خيارا حاسما : أما طاعة قوانين الله وهو في عليائه، أو تطبيق القوانين الوضعية التي يكتبها البشر. و هكذا، سيكون خيارنا : اما الإسلام أو الجاهلية. ان النمط الجديد من الجاهلية هو المجتمعات الصناعية في أمريكا وأوربا، وهي - في جوهرها - مشابهة للجاهلية الأولى في زمن الوثنية والبداوة، .. في كلتا الحالتين كان الإنسان تحت سيطرة الإنسان وليس الله.

لم يكن قطب أول مفكر نظر إلى العالم بهذه الطريقة، فقد كان متأثرا بأفكار مجايله مولانا محمد في الهند، الذي كان نافراً من الحداثة، ينظر إليها بوصفها شكلا من أشكال البربرية، و كلاهما اعتمد في اطروحاته على حوادث وأفكار الأقدمين. و أحد هؤلاء الأقدمين هو ابن تيميه، وهو مفكر إسلامي من طراز لوثري. دعا في القرن الثالث عشر - في رد فعل على هجوم المغول - الى العودة إلى جوهر الإيمان الذي تخلى عنه رجال الدين يومذاك. و أحد المصادر الأساسية لسيد قطب و مولانا محمد مفكر اسلامي آخر هو محمد بن عبد الوهاب، الذي دعا إلى تطهير الإسلام من الإضافات الحديثة والاعتماد بصرامة على القرآن والحديث النبوي.

لكن طريقة سيد قطب هي التي قدمت وضوح الرؤية لمنظري إسلام اليوم.فأحد الأسباب التي جعلته حلقة ربط مع الحاضر هو استمرار حركة الأخوان المسلمين في العمل داخل مصر وأماكن أخرى. و لنلاحظ أن بن لادن و ايمن الظواهري هما عضوان سابقان في حركة الأخوان. وأكثر من ذلك، لا تزال القوى التي اعتقد قطب، في الخمسينيات والستينيات، بأنها مقوضة للإسلام (الرأسمالية، والفردانية، والإباحية الجنسية، والانحطاط) تمثل تهديدا قويا له، الى جانب المستحدث الجديد : العولمة.

لقد فقَدَ سيد قطب الإيمان بالقومية العربية، التي كانت الأيديولوجية السائدة في العالم العربي حينذاك، ففي رسالة له من السجن، قال قطب : ان الوطن الذي يعتز به المسلم ليس قطعة من الأرض بل كل ديار المسلمين، وأي ارض تعيق تطبيق ممارسة شعائر الإسلام أو تطبيق الشريعة تعتبر بحكم الواقع جزءًا من دار الحرب ويجب مقاتلتها حتى لو كان بها أصدقاء أو أقارب أو جماعة المرء الروحية أو حتى لو كانت عاصمة ومصدر تجارته. ثمة خط مستقيم شديد الوضوح يربط أفكار هذه الرسالة بأفكار بن لادن وأتباعه في القاعدة، فهم - مثل السيد قطب - يؤمنون بأن الإسلام واقع تحت هجوم مزدوج، فليس هناك هجوم عسكري غربي معادي (في العراق و فلسطين و الشيشان و سواها من المناطق)، بل ثمة هجوم من الداخل تمارسه الأنظمة كافة، يساعد في انتشار قيم الغرب و نسف المقصود ب (الإسلام). هذا الهجوم - من وجهة نظر القاعدة - يجب أن يقاوم ب (الجهاد)، بكلا المعنيين اللذين يحملهما هذا المفهوم في الإسلام، .. الجهاد الشخصي في الطاعة الكاملة للعقيدة وجهاد المسلم ضد أعداء الإسلام. و لنلاحظ أن مفهوم (أعداء الإسلام)، في هذا الخطاب، يشمل كلاً من العدوين (أمريكا وإسرائيل) و الأعداء الأقرب (الأنظمة العاقة أو (المرتدة) في العالم الإسلامي). و لذلك، كانت معاداة بن لادن للنظام السعودي في مستوى مماثل لمعاداته للولايات المتحدة.

و لكن، كم تمثل وجهة النظر هذه؟

ان المسلمين يشكلون ربع سكان العالم، و لكن القليل من ١،٥ مليار مسلم قد سمع بأفكار القاعدة، وأقل احتمالا انه انتمى إلى هذه الأفكار، فليس أكثر من الآف قليلة قد انخرطت في نشاطات القاعدة ومثيلاتها في التفكير من منظمات الجهاد.

لقد شارك رجال الدين والمفكرون المسلمون الناسَ العاديين في العالم في إدانة تنظيم القاعدة وما ارتكب باسمه، مع أن هذا لا يعني أن كل أولئك معتدلون. فأحد هؤلاء هو السيد محمد حسين فضل الله، القاطن في بيروت، الذي يوصف بأنه المرشد الروحي لحزب الله المدعوم من إيران، لقد أصدر فضل الله فتوى أدان بها الهجوم، وهناك تنديد آخر قدمه رجل الدين المصري الشيخ يوسف القرضاوي، الذي يظهر باستمرار في برنامج تلفزيوني في قناة (الجزيرة) القطرية، و هناك وجهات نظر غاضبة من ملايين المسلمين. كل ذلك يفرح القلب. و لكن المشكلة الحقة هي أن قلة قليلة يمكن لها أن تعمل أفعال ذات عواقب لا تحمد. فقد اشترك تسعة عشر شابا فقط في أحداث ١١سبتمبر، و لكن فعل هؤلاء التسعة عشر قد غيّرَ التاريخ. فقد أدى في غضون عامين إلى غزو واحتلال عسكري أمريكي لبلدين مسلمين هما العراق وأفغانستان، وبالتالي دمرت تصورات المسلمين عن أمريكا - وإلى مدى ابعد - الغرب كله.

أظهر استطلاع أجراه برنامج (المواقف الكونية) ذو الطابع الاستطلاعي أن وجهات النظر السلبية عن أمريكا بين المسلمين قد انتشرت ابعد من الشرق الأوسط إلى إندونيسيا، أكثر البلدان الإسلامية سكانا، وإلى نيجيريا. فأغلب الدول الإسلامية تعتقد بأن أمريكا تشكل تهديدا عسكريا لبلدانها، و الأغلبية الساحقة من الفلسطينيين والإندونيسيين ونصف المغاربة والباكستانيين قالوا ان لديهم ثقة بأن بن لادن يفعل الأمور الصائبة فيما يتعلق بشؤون العالم.

ليست هناك ضرورة لأن يستمع المسلمون مباشرة لأشخاص من قبيل قطب والمودودي وعبد الوهاب حتى تنتشر وجهة النظر هذه. فعلى سبيل المثال، تم تبني بعض أفكار محمد بن عبد الوهاب من الحكومة السعودية ويتم نشرها في المساجد القاصية والدانية على خلفية البترودولار السعودي. والوهابية حركة متزمتة تمثل الفكر السني المضاد للغرب. و الأقلية الشيعية في الإسلام تعارض الفكر الغربي كذلك، من خلال أولئك الذين يتدافعون كل جمعة في كل جوامع طهران.

فإلى أين ستؤدي تلك العلاقة بين العقيدة الإسلامية والإسلام السياسي؟

الاسلام - عند غالبية المسلمين - هو مجرد دين أو طريقة لتنظيم الحياة وفقاً لإرادة الله. و لكن، هل هو دين سلم أم عنف؟ انه، مثل الأديان الأخرى، له نصوص مقدسة يمكن أن يستشهد بها لدعم كلا الموقفين، وفقاً للظروف. انه مثل الإنجيل في ذلك، و لكنه يختلف عنه في أن المسلمين يعتقدون بأن القرآن كله هو كلام الله المرسل مباشرة إلى النبي محمد، و هو يحتوي على وصايا شديدة و سلمية معا، ولكن المسلمين يتمتعون بإظهار التعاطف والإحسان. نعم يوجد في الإسلام مفهوم الجهاد (= الحرب المقدسة) الذي يعتقد بعض المسلمين بأنه يشكل أحد أركان الإسلام و تجب إضافته إلى أركان الإيمان الخمسة الأخرى : التوحيد، و الصلاة، والزكاة، و الصيام، و الحج، و لكن القرآن يؤكد - مع ذلك - على فكرة أن (لا إكراه في الدين).

دخل الإسلام والمسيحية في صراع طوال قرون عدة. و لكن، إذا كان هناك شيئ في جوهر الإسلام يهيئ أتباعه قبليا إلى صراع عنيف مع الغرب، فمن الصعب القول ماذا يمكن أن يكون ذلك الشي؟ قد يكون البحث عن شيء ما هنا هو اشتغال في العبث، فضلا عن أن أساسيات الاعتقاد هي موضع صدام بحد ذاتها.

لنلاحظ أن ليس في الإسلام (بابا) أو سلطة مركزية (على الرغم من تطلع الشيعة إلى ما يماثل ذلك)، و هذا يعني - على نحو ما يقول جيمس سيكاتوري من جامعة اكسفورد - : (إن السلطة الدينية والعلماء الرسميين يعدون أنفسهم في منافسة مع رجال الدين الشعبيين أو غير الرسميين والوعاظ والحركات الصوفية والمجاميع الدينية التي يقودها المتصوفون.كل هؤلاء، وغيرهم، يدعون صلة مباشرة بالنص الديني والزعم كذلك بتأويل معاصر لمعانيه). وهنا يثار سؤال أساسي : هل يملك أي فرد أو مجموعة من هؤلاء حق الاستحواذ على المقدس، حتى وهم يوائمون ذلك الحق لأنفسهم فقط؟.

## الآلهة التي هوت

منذ أحداث ١١استمبر والمناقشات عن الإسلام تزخر بعبارات من الإسلامية، الإسلاموية، الإسلام الراديكالي، وهلم جرا. و في الغالب، ما من أحد يتفق مع آخر على ما تعنيه هذه المصطلحات أو كيف تشكلت أساسا، فمنظومة الأفكار المقترنة بسيد قطب (و لا سيما فكرة أن للإنسان خيارا واحدا : اما الجاهلية أو إطاعة قانون الله) هي شكل متطرف من أشكال الأصولية الإسلامية، التي هي بدورها جزء من تصنيف اكبر يسمى (الاسلاموية) أو (الإسلام السياسي).

يعرّف الأكاديمي الأمريكي نوح فليدمان، في واحد من كتبه الحديثة، (الاسلاموية) بأنها : (رؤية المرء السياسية والروحية والاجتماعية الشاملة التي تحدّد بنقيضها غير الإسلامي)، و يذهب غراهام فولر، المسؤول السابق في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، إلى أن المسلم هو (المرء الذي يعتقد بأن الإسلام يعد منظومة إيمان لديها الشيء المهم الذي تقوله عن كيفية تنظيم المجتمع والسياسة في العالم الإسلامي المعاصر، ويسعى لتطبيق تلك الفكرة في بعض الصيغ)، و لكن الكاتب الفرنسي أوليفر رويه يفضل تعريفا آخرا مختصرا : (الإسلام السياسي هو مسعى لتشكيل دولة إسلامية).

ومهما اختلفت التعريفات - إذ يوجد كم هائل للاختيار بينها -، فإن النقطة الرئيسة الجديرة بالاهتمام هنا هي الميل المتزايد في العالم الإسلامي للإسلاميين، والتوجه نحو الدين حلا - أو جزء من حل - للمشكلات السياسية. والمسلمون ليسوا وحيدين في هذا الأمر ، فالعديد من الأمريكيين (والهنود والإسرائيليين) يعتقدون بإن المسيحية أو البوذية أو اليهودية لديها ما تقوله بشأن كيفية تنظيم السياسة والمجتمع، ولكن مدى الدعم الذي يقدمه الإسلام السياسي يجعل الإسلام مختلفا عن سائر هذه الأديان. يذهب برنارد لويس، الأستاذ في جامعة (بروستون)، إلى أن أحد التأويلات الجدالية للإسلام في الغرب هو أن اغلب البلدان الإسلامية لا تزال إسلامية بعمق، بالطريقة نفسها التي لم تعد بها أغلب البلدان المسيحية مسيحية.

ولكن لماذا؟

قد يجيب المسلم الورع بأن الإسلام هو أكثر الأديان نجاحاً مقارنة مع منافسيه، فهو أسرع الأديان انتشاراً، و لكن الإجابة المحتملة الأخرى - أو لنقل الطريقة الأقل إيجابية لقول الأمر نفسه - هي الاعتقاد بأن كل القيم التي دخلت في منافسة مع الدين في العالم الإسلامي كان مآلها النجاح الضئيل مقارنة مع ما حصل في الغرب. والصعوبة في ذلك هي أن الكثير من هذه القيم (الديمقراطية، الليبرالية، الحداثة) هي قيم يتطلع إليها المسلمون. و لذلك، فإن تزايد عدد المسلمين الذين يتطلعون إلى الله ليستجيب لمشكلاتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، قد يعزى إلى أن آلهة أخرى خيبت أملهم.

فمنذ حكم الاستعمار، وجدت أغلب الدول الإسلامية صعوبة في تكوين ديمقراطية ناجحة، على الرغم من أن عددا منها التحق بموجة (الدمقرطة) التي أعقبت الحرب الباردة، فمن بين كل خمسة بلدان ذات أغلبية إسلامية يمكن أن يُصنَّف بلد واحد فقط بأنه بلد ديمقراطي. ان الديمقراطية في بعض البلدان بخطى أوسع من غيرها، فمنذ وقت ليس ببعيد، خرجت إندونيسيا من دهر طويل من الديكتاتورية تحت حكم سوكارنو و سوهارتو، أما باكستان - التي لها حظ ضئيل من الديمقراطية - فانها تحكم من قبل دكتاتور عسكري، وإيران تتأرجح بين الثورة والثورة المضادة.

أما مستوى الإنتاج الإجمالي للفرد في البلدان الإسلامية في الربع الأخير من القرن الماضي فقد انخفض أو بقي في المستوى نفسه، على نحو ما يقول معهد بروكلن.

يشكل العرب صميم الإسلام، و هم يشكلون ٢٠ ٪ من عدد مسلمي العالم، لكنهم يشكلون - مع ذلك - نسبة لا تتلاءم في عدد الإرهابيين. والعرب اليوم يعيشون فوضى، فالعقد الاجتماعي الذي كان ممكنا في البلدان النفطية - التي تحملت أعباء الثيوقراطية في مقابل تلبية حاجات المرء - قد انحل مع انخفاض أسعار النفط وازدياد السكان. و في تموز الماضي، صعق العرب بنتائج تقرير أكاديمي لبرنامج التنمية البشرية التابع للأمم المتحدة، أظهر المدى الكلي لهذا الفشل. فطوال عشرين عاما - يقول التقرير -، كان مستوى نمو دخل الفرد في ٢٢ بلدا عربيا أقل ب ٥٪ من سائر بلدان العالم، اذا استثنيتا بلدان الصحراء الأفريقية، و ان ٢٠ ٪ من العرب لا يزالون يعيشون بأقل من دولارين في اليوم، و ان حوالي ١٢مليونا ( ١٥٪ من القوى العاملة) هم عاطلون عن العمل، و هذا العدد قد يصل إلى ٢٥ مليونا في العام ٢٠١٥. غير أن التقرير لا يعزو هذا الفشل إلى قلة الموارد، بل إلى نجاح الثيوقراطيات المطلقة وتزييف الانتخابات والخلط بين السلطة التشريعية و السلطة التنفيذية والقيود على الإعلام والظروف البطريركية المتعصبة. و مع أن ٢٨٠ مليون عربي ينفقون على التعليم أكثر - في النسبة - من أي من البلدان النامية في المنطقة، إلا أن ٦٥ مليون شاب عربي لا يزالون أميون، وحوالي ١٠مليون طفل خارج التعليم على الإطلاق. و في الوقت نفسه، يوجد القليل من الإنتاج المعرفي أو الترجمة من لغة أخرى، فطوال ١٠٠٠سنة - منذ الخليفة المأمون - ترجم العرب - على نحو ما يقول التقرير - بقدر ما تترجمه أسبانيا في عام واحد.

مشكلة أم حل؟

هل الإسلام هو أحد أسباب هذا النمط من الفشل؟

يبدو السؤال، عند أكثرية المسلمين، معكوسا رأسا على عقب، ف (الإسلام السياسي) أو (الاسلاموية) تبدأ من اتجاه معاكس، اذ يُعزى فشل العالم الإسلامي إلى ترك الإسلام وليس إلى اعتناقه.

(الإسلام هو الحل)، ذلك ما تقوله الأحزاب السياسية الإسلامية، غير أن لهذا الشعار البسيط جاذبية تتعزز باعتقاد الكثير من المسلمين بأن الأجوبة الأخرى قد جربت ووجدت قاصرة.

توجد بلدان في العالم العربي، من قبيل المغرب والأردن ودول الخليج، تتمسك - الى الآن - بنظم حكم شبه إقطاعية. و لكن النمط السائد هو نظام تجربة المحاولة والخطأ الذي تبع مرحلة الاستعمار، و الذي تجسد في مرحلة القومية العربية والمبادئ الاشتراكية تماشيا مع فكرة توحيد الناطقين بالعربية في دولة واحدة. منظرو هذه العقيدة يذهبون إلى أن قوى الغرب أضعفت يكون دولة واحدة، فالعرب - على نحو ما يقول دستور حزب البعث - يشكلون أمة واحدة، وهذه الأمة لها الحق بأن تعيش في دولة واحدة .

لقد ألهمت القومية العربية الجماهير لفترة، بمساعدة شخصية عبد الناصر الكارزمية، وأعطتها ثقة جديدة بالنفس، و لكنه فشلت في النهاية، فقد أخفقت محاولة توحيد الدول (المصطنعة) في مرحلة ما بعد الاستعمار، و فشلت القومية العربية، كذلك، في هزيمة إسرائيل، ولم تنجُ شخصية ناصر الكارزمية من إذلال هزيمة ١٩٦٧، ولا استطاعت أن تطور مؤسسات ديمقراطية مناسبة أو تكسب ولاء الجماهير. و في نهاية القرن العشرين - يقول الكاتب أديد داوشا مؤلف كتاب (نعي باذخ للقومية العربية) - لم يبقَ إلا القليل، .. حطام لوعود مهشمة وأحلام متناثرة.

و بهذا الحطام، غمر الإسلام السياسي جذوره.

في مصر والمغرب : من يستخدم من؟

البلدان ليس بعاجزين، فكلاهما حليف لأمريكا، و لكنهما مشوشان، فهما يغرقان في المشاكل، على الرغم من امتلاكهما برلمانا وانتخابات، غير أنهما بعيدان عن الديمقراطية. ففي المغرب هناك سلطة مطلقة بيد الملك محمد السادس لتعيين الوزارة ورئيس الوزراء، و مصر تقاد من قبل الرئيس حسني مبارك، الذي جلس على كرسي الحكم منذ ١٩٨١. و في كلا البلدين أحزاب معارضة علمانية، ولكن التهديد الحقيقي، في كلا البلدين، من الإسلاميين.

## فما الذي يريده الإسلاميون؟

حركة الأخوان المسلمين في مصر مسموح لها الآن بالعمل ضمن حدود معينة، و هي لم تشغل نفسها بالعنف منذ الستينيات. و لكن حركة الأخوان ممنوعة كحزب سياسي، و ان ١٧ من أعضائها يحتلون مقاعد في مجلس الشعب - المنزوع الأسنان - بوصفهم مستقلين. فالدكتور عبد المؤمن أبو الفتوح - رئيس نقابة الأطباء المصريين و أحد قادة الأخوان - لن يكون مطلقاً وجهاً مقبولاً عند المحافظين الجدد في واشنطن، فهو يذهب إلى أن الغرب تحول ضد الإسلام بشكل رئيس بسبب المشروع الاستيطاني الصهيوني، فإسرائيل بحاجة إلى الحماية الغربية، و لذلك، فانها سممت مواقف الغرب تجاه الإسلام، هذا على الرغم من أنه لا يشارك سيد قطب في فكرة أن الغرب في حالة جاهلية، و هو لا يرى أي تناقض بين حياة الغرب والإسلام)، ففي النهاية، هناك مجموعة من القيم الإنسانية المشتركة من نحو : العدالة، و الحرية، و حقوق الإنسان، والديمقراطية.

و على نحو مماثل ربما، يتبرأ سعد الدين العثماني - نائب رئيس حزب (العدالة والتقدم)، و هو الحزب الذي سيخبرك الجميع، ما عدا أعداءه، بأنه الحزب الإسلامي الشرعي الوحيد في المغرب - في لقاء له مع (الايكونومست) من الصفة الإسلامية، على الرغم من أن الحزب وضع - أكثر من غيره من الأحزاب - تشديدا الهوية الإسلامية للمغرب، لكنه نذر نفسه، مع ذلك، للديمقراطية وليس الإسلام. فأعضاء الحزب يرون أنه بعد ٥٠ سنة من الاستقلال لا يزال المغرب متخلفا عن التقدم الديمقراطي والعدالة، و هم يرون أن من أولوياتهم محاربة الفساد وإرجاع الأخلاق إلى الحياة العامة، ثم التقليل من اللامساواة الاجتماعية باستثمار رأس المال البشري. و الدكتور أبو الفتوح يرسل من القاهرة الرسالة نفسها، فهو ينحي جانباً الأسئلة عن دور الأخوان إن كانوا يسعون لتطبيق الشريعة في مصر، فأزمة مصر ليست في غياب الشريعة بل في فقدان الديمقراطية، هذا مع أنه يرى أن الشريعة يجب أن تحترم.

لقد واجه الأخوان التعذيب والسجن، يقول د.أبو الفتوح - الذي كان قد سجن لخمس سنوات - : على الغرب أن يعي أن هذه الأنظمة هي مجموعة من اللصوص، ..أناس غير أسوياء يرغبون فقط بالجلوس على الكراسي. لقد شوهوا صورة الإسلام في الغرب وخلقوا ما يُسمى الآن ( فوبيا الإسلام)، على نحو ما يقول.

توجد في المغرب - الى جانب حزب (العدالة والتقدم) - حركة إسلامية كبيرة تسمى (جماعة العدل والإحسان)، مُنعت من العمل كحزب سياسي ووُضع قائدها الكبير (شيخ ياسين) تحت الإقامة الجبرية. لقد كان هدفها المعلن هو تحويل المغرب إلى بلد إسلامي، ولكن هذا - على نحو ما يقول الناطق الرسمي باسمها فتح الدين أرسلان - هدف بعيد المدى. ففي الوقت الحاضر - يقول أرسلان - (لا تبيح الأزمة السياسية الراهنة وقتا للتنافس السياسي. ما نحتاجه الآن فترة انتقالية، ينبغي للإسلاميين فيها جميعا، من اليمين واليسار، الاشتراك في العمل الحثيث لتحسين الأحوال)، هذا فضلا عن تركيزه على التعليم و الرفاهية.

مثل هذه الحوارات تظهر أن الإسلام ليس وحدة كليانية متناغمة متراصة، فالناطق المعتدل باسم حزب (العدالة والتقدم) عادل ولد حسان وأعضاء حركة الأخوان يظهرون اليوم بعيدين عن عنف أعضاء القاعدة. ولا نعلم لماذا يصر الناس على جمع كل هذه الحركات تحت تسمية واحدة، هي (الإسلام السياسي)، لمجرد كونهم مرتبطين بالعنف - وان بطريقة أخرى - في أذهان الأنظمة؟.

لقد وقع في المغرب هجوم انتحاري في الدار البيضاء في أيار الماضي أسفر عن مقتل ٤٥شخصا. مرتكبو الهجوم يعودون إلى مجموعة (السلفية الجهادية)، ولا يوجد دليل على ربط هذا الهجوم بحركة (العدالة والتقدم)، التي سارعت حينها إلى إدانته. و لكن الهجمات، مع ذلك، شجعت على فرض قيود على حزب (العدالة والتقدم). لقد قال مسؤولون في القصر الملكي المغربي ان التفجيرات تظهر أن إصلاحات الملك الحذرة قد أسرعت الخطى، ولكن قيل آنذاك إن الحكومة فكرت بحظر مشاركة حزب (العدالة والتقدم) في الانتخابات محلية.و لكن رد فعل كهذا لا يشكل مفاجئة، في المغرب ومصر والعديد من الأقطار الإسلامية الأخرى تميل الحكومات إلى تصنيف الإسلاميين في طيف يجعلها في النهاية مترابطة كلها. عند طرف أحدى النهايات يقف الأئمة الذي إثمهم الوحيد هو الإثارة في خطب الجمعة (التي تسيطر عليها الدولة)، وفي نهاية الطرف الثاني يقف الإرهابيون الحقيقيون على غرار حركة (السلفية الجهادية) في المغرب أو (الجماعة الإسلامية) في مصر التي أعلنت مؤخراً وقف إطلاق النار. و في المنتصف، توجد حركات مثل حزب (العدالة والتقدم ) و (حركة العدل والإحسان) وحركة (الأخوان المسلمين)، التي تدعي أنها حركة ضد العنف، على الرغم من أن النظام يتهمها بخلق جو من العسكرة، به يترعرع رجالات العنف.

الغريب في الأمر أن هذه الأنظمة لا تخشى الإسلاميين حسب، بل تستغلهم أيضا. فقد رأت الحكومة المغربية في (جماعة العدل والإحسان) حصنا محافظا ضد قوى اليسار، ثم شجعت حزب (العدالة والنهضة) ليصبح اكثر اعتدالاً لمواجهة حركة (العدالة والإحسان). ولكن، عندما بدأ حزب (العدالة والتقدم) يحرز تقدما في الانتخابات، أخذ القصر يشعر بالقلق من أن الحزب نما أكثر من حجمه. وبطريقة مماثلة، فإن الحكومة المصرية غالباً ما ترى في حركة الأخوان أداة طيعة، فقد شجع الرئيس السادات الأخوان المسلمين للعمل كثقل موازن لحركة اليسار الراديكالي في حرم الجامعات.

يبدو من غير الأنصاف ضم أحزاب مثل حزب (العدالة والتقدم) - الذي لم يصف نفسه بأنه (إسلامي) - إلى حركات الجهاد العنيفة. و لكن هذه الأحزاب، في كل الأحوال، لا تعلو على الشبهات. فعلى الرغم من تنصل قادة حزب (العدالة والتقدم) من (الوصمة الإسلامية)، فإنهم يعزفون على نغمة تراث المغرب الإسلامي، و يبدو الناطق باسم الحزب مراوغاً اذا سئل عن حدود الشريعة الواجب تطبيقها في المغرب، كما أن الحزب كان قد أسس على شبكة تحتية من الجماعات تسمى (الوحدة والإصلاح)، هي أكثر وضوحاً في أهدافها عن أسلمة المجتمع. لهذا، ليست الحكومات وحدها قلقة من نمو التأثير الإسلامي، يقول إدريس كزيز رئيس تحرير مجلس مجلة (الشؤون المعاصرة) : (أنني أدين طريقة الحكومة باستخدام تفجيرات الدار البيضاء لوصم الحركات الإسلامية ب(الشيطنة) والعودة خفية إلى طريقة الحكم الشمولي)، و لكنه في الوقت نفسه لديه تحفظات اتجاه الإسلاميين، و هو يقول هنا : (كل من حزب (العدالة والتقدم) وحركة (العدل والإحسان) يسعى إلى إقامة دولة إسلامية تقوم على الشريعة، و لكنهما يستخدمان منهجين مختلفين.

فبينما تهيئ حركة (العدل والإحسان) الناس بصبر لقدوم الخليفة، يعمل حزب (العدالة والتقدم) مع النظام السياسي ويقدم صورة أخف، و لكنهما - بالنتيجة - يسعيان إلى السبيل ذاته).

أما في مصر، فمن المناسب جداً للرئيس المصري أن تكون له معارضة إسلامية تحت اليد، لأن هذا يساعده في إقناع الولايات المتحدة على أن فشله في الداخل يؤدي إلى وقوع مصر في مستنقع الأصولية.

و هكذا، تستخدم الحجج والمجادلات نفسها في كل البلاد العربية والإسلامية، من الممالك العربية إلى بلاد الدكتاتوريات (البحرين، سوريا الأسد، باكستان برويز مشرف)، فالدكتاتوريون والملوك يشيرون إلى الإسلاميين ويقولون انهم سيكونون أسوأ منا.

وفي الوقت نفسه، فإن الإسلاميين المعتدلين يقولون ان استمرار الحكومات بالضغط عليهم سيؤدي الى أن يحل محلهم الإسلاميون المتطرفون، و هذا يعني (أننا ان لم نحصل على الديمقراطية فستواجه الحكومات لعبة انبعاث الجماعات المتطرفة)، هذا ما يصرح به مصطفى خليفي المحرر السياسي لجريدة (التجديد) المغربية.

و بمعنى مقارب، يقول الدكتور بهجت قرني من الجامعة الأمريكية في مصر : (منذ أحداث ١١استمبر، أصبحت حركة الاخوان أقل اغراءً من الجهاد، فالجيل الجديد أقل تركيزا على الشؤون المحلية، انه يتطلع إلى عالم ما وراء مصر بغية نيل موقع أوسع لدى المسلمين).

هل تقدم مصر والمغرب نموذجاً نمطياً؟

ليس من الصعب أن نجد فروقا كثيرة بينهما، فالأولى هي مهد الحركة القومية، والثانية ملكية، .. الأولى تعد موطن العواطف التي ألهبت العالم العربي والأخرى بلد محافظ راكد. و لكن الإسلام السياسي في هذين البلدين المختلفين جداً يعيد نفسه في كل أرجاء العالم الإسلامي.

وبخنق المعارضة العلمانية، تركت الأنظمة الشمولية الساحة السياسية أمام الإسلاميين، الجماعة الوحيدة التي لها أتباع.

أن بامكاننا الآن أن نقول : ما لم يعطَ الإسلاميون المعتدلون آذاناً صاغية فإن المواطنين الساخطين سيتحولون إلى منظمات العنف إذ يرسل العراق وأفغانستان رسالة قوية للمجتمع الإسلامي المعاصر، لتجنيد أتباع أكثر.

و هكذا، لا يتغير شيء في العالم الإسلامي أبدا.

إشارة من محرر المجلة

مقالات هذا الملف ليست عن الدين، بل عن الاستخدام السياسي للدين. إنها بمجملها محاولة لمعرفة لماذا بدا وكأنَّ العالم الذي يقطنه المسلمون اصبح في صراع الآن مع العالم الذي يسكنه غير المسلمين. إن الإسلام كإيمان ليس موضع إجابة عن هذا السؤال، لكن مفردات التاريخ والسوسيولوجيا وعلم السياسة تشكّلُ دون شك جزءا من الإجابة.